كلمة التحرير

مرجعية البحث في تطوّر الفكر التربوي

هيئة التحرير

إذا كان الفكر صفةً للإنسان يتميز بها عن سائر المخلوقات، فإنَّ من المتوقع أن يكون الفكر الإنساني قد بدأ مع الإنسان منذ لحظة وجوده الإنساني. والرؤية الإسلامية للعالَم حاسمة في التعبير عن ذلك؛ فالله سبحانه قد علَّم آدم الأسماء، وطلب من آدم أن يُنْبِئ الملائكة بهذه الأسماء فَفَعَلَ! فثمّة عمليةُ تعليم وتعلّم، ولا يكون ذلك إلا بوعي وإدراك؛ أي بفكر. ثم كان في حياة البشرية الأولى تزاوج الذكور والإناث ووجود أطفال يحتاجون إلى تنشئة وتدريب وتعليم وتنمية للقدرات الفكرية، ونتوقع أنَّ الوالدين كانا يقومان بدور تعليمي في كلّ ذلك بالفطرة، وبالوعي والإدراك، وبما تفضَّل الله به عليهما من تعليم وما اكتسباه من خبرات مرّا بها في حياتهما. ولم يَغِبْ فضلُ الله على الأبناء بالتعليم عندما يغيب الوالدان وتطرأ مواقف وحالات جديدة، فيبعث الله لهم نموذجاً عملياً يُعلِّمُهم كيفية التصرف في هذه المواقف. ويصبح الموقف التعليمي خبرة جديدة وربَّما أساساً لتشريع ينظم شؤون الحياة.[1]

وقد ارتبط الفكر الإنساني بالعلم والتعليم، فالإنسان كان مزوداً بالقدرة على تعلُّم الجديد مما يهديه الله إليه، ويواجه به مستجدات الحياة. والإنسان مدني بالطبع، وكان من أيّامه الأولى، يعيش في مجتمع تتكامل فيه متطلبات الحياة للجميع من خلال التخصص في حرف الزراعة والرعي والصيد وإعداد المأوى وصنع السلاح، وغير ذلك، وكلُّ ذلك يحتاج إلى تعلّم وتعليم، وتربية وتدريب. والله سبحانه لم يدَعِ الإنسان لنفسه، فكان

---

[1] نتذكر في هذا السياق ما وقع بين ابْنَيّ آدم من خلاف انتهى بأن يقتل أحدهما الآخر، ولم يدر ما يفعل القاتل بجثة المقتول، فبعث الله غرابين يقتتلان فقتل أحدهم الآخر، ثم حفر الغراب القاتل حفرة ودفن فيه الغراب المقتول، تعليماً لابن آدم. قال الله سبحانه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (المائدة: ٣١).

الأنبياء والرسل يقدمون لأقوامهم ما يصحح تصوراتهم وأفكارهم، ويزكي نفوسهم، ويدير شؤونهم.

وبعض الأنبياء والأولياء كانوا نماذج في إتقان المهن والحرف، فالنَّبِيُّ نوحٌ عليه السلام، يصنع السفينة بعَيْن الله ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ (هود: ٣٧)، وداود عليه السلام يصنع دروع الحرب بدقة ومهارة ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ (الأنبياء: ٨٠)، ويوسف عليه السلام ينظم اقتصاد المنطقة بإدارة حكيمة خمس عشرة سنة. ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ (يوسف: ٥٥)، وذو القرنين يَبْني سداً من زُبَرِ الحديد ومصهور النحاس؛ رحمةً من الله للضعفاء لحمايتهم من المفسدين الأقوياء: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ (الكهف: ٩٥-٩٦). والملاحظ أنَّ هذه الأمثلة من هداية الله سبحانه وتعليمه ليست من قبيل المعجزات الخاصة بِنَبِيٍّ أو وَلِيّ، مما كان من شأن عصا موسى عليه السلام أو طين عيسى السلام، ولا هي من قبيل الاستعانة بالجن والطير وحركة الرياح مما كان من شأن سليمان عليه السلام، إنَّما هي أفكار وخبرات بشرية تختص بالإداة العلمية للحياة العملية. يتعلمها الناس وفق ما تستند إليه من مبادئ وقواعد اكْتُسِبتْ وتُكتسب بالخبرة المباشرة والتعليم.

وتتوارث الأجيال البشرية بعض هذه الخبرات عن طريق التنشئة الأسرية، لا سيما ما يختص بعناصر الهوية المميزة لكل أمة من دين وقيم ولغة وتاريخ، كما تؤدي مؤسسات التعليم والتدريب مهمّتها في نقل هذه الخبرات وفي تنميتها وتطويرها؛ فالفكر البشري في مجمله كان دائم التغير على مستوى الأفراد والمجتمعات والأمم، تبعاً لما يتوفر لكل مستوى من الخبرات المتجددة، جيلاً بعد جيل؛ إذ تنشأ علوم ومهن ومعارف جديدة في المجتمع الواحد، ويحدث تثاقف بين المجتمعات، في حالات السلم والحرب. وتتواصل عمليات التطور والتغير في مؤسسات التعليم وموضوعاته، وأساليبه.

وتاريخ التربية فرع من فروع علم التربية، وهو فرع يدرس تطور الفكر التربوي وما يحكم هذا الفكر من فلسفات ونظريات، وما يدور حوله من نظم وموضوعات

وأساليب. ومع أنَّ التاريخ البشري يتواصل دون انقطاع، وتتوارث الشعوب والأمم مكتسباتها العلمية والحضارية، لكنَّنا لا نعدم اختلافاً قليلاً أو كثيراً بين ما يعرف لدى كل حضارة من فكر تربوي، تبعاً لقربها أو بعدها من هداية الوحي وتبعاً لما يحصل لمدى التواصل بين الحضارات المتزامنة، أو درجة التوارث بين الحضارات المتتابعة.

ولا شك في أنَّ التربية أكثر مجالات المعرفة التصاقاً بالطبيعة المميّزة للبشر، فالطفل البشري يحتاج إلى فترة طويلة من العناية والرعاية والتعليم والتدريب، إذا قورن بحاجة المواليد في الكائنات الحيوانية الأخرى. وفي الوقت الذي نجد الكائنات الحيوانية تمارس حياتها بعدد محدود من المهارات التي تكتسبها بغريزتها وتستمر معها بنفس مستواها طيلة حياتها، نجد أنّ الكائن البشري يمكن أن تتزايد علومه وخبراته ومهاراته يوماً بعد يوم طيلة حياته. ومع ذلك فإذا قورنت عمليات التربية وعناصرها بالعمليات والعناصر الخاصة بأي نشاط بشري آخر، سنجد التربية أكثر ثباتاً ومحافظة ومقاومة للتغير، وربما كانت بعض خصائص التربية التي يمكن أن نتخيلها في العصور الأولى من حياة البشرية لا تزال تسود التربية المعاصرة، فعملية التربية لا تزال تدور حول خبرات (علم) يقدمها شخص يملكها (معلم) إلى شخص لا يملكها (متعلم) ليكتسبها (تعلّم). وهذه الخبرات هي معلومات، ومهارات، وقيم، وأنماط سلوك. ومكان التعليم لا يزال مدرسة وإن تغير اسمها وحجمها وشكلها، والقراءة والكتابة عمليتان أساسيتان مهما تغيرت أدواتهما وطرقهما.

والمادة المتوفرة حول تاريخ التربية باللغة العربية ليست قليلة. لكن كثيراً منها يعود إلى ما كتب بغير العربية، لا سيما ما يختص بالحضارات القديمة، والوسيطة، وأكثره كتب أولاً باللغات الأوروبية، معبراً عن رؤية أوروبية لا تخلو من تحيُّز يتجاهل قيمة الإسهام الإسلامي في تاريخ التربية، أو من جهل بالمصادر. ومن الأمثلة على ذلك مرجع محدد أشار إليه معظم من كتب عن تاريخ التربية أو تطور الفكر التربوي،[٢] والمرجع المشار إليه لتربوي أمريكي باسم "بول مونرو" نشره عام ١٩٠٥م، وصدر عن دار ماكميلان للنشر

[٢] نذكر هذا المرجع على سبيل المثال، فثمة مؤلفات أخرى بالإنجليزية والفرنسية، كتبت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وكانت مراجع نقل عنها المؤلفون العرب الذي كتبوا عن تاريخ التربية في وقت مبكر، ثم نقل عنهم من جاء بعدهم.

للمرة الأولى عام ١٩٠٦.[٣] وتشير كثير من المراجع إلى طبعات كثيرة للكتاب آخرها ٢٠١٦.[٤] بغض النظر عما إذا كان مؤلفو هذه الكتب العربية قد قرأوا في هذا المرجع أو قرأوا ممن نقلوا عنه.[٥]

والكتاب مجلد ضخم بلغت صفحاته ٨١٤ صفحة ويتصف بالشمول والاستقصاء في عرض تاريخي للفلسفات التي سادت العالم المعروف في التاريخ ابتداءً من تاريخ التعليم في الصين، مروراً باليونان القديمة واليونان الحديثة، والرومان، والقرون الوسطى المسيحية، والإصلاح الديني في أوروبا، وعصر التنوير والفلسفات التربوية المثالية والواقعية، والتوجهات النفسية والعلمية والاجتماعية، والتوجهات الانتقائية المعاصرة (في نهاية القرن التاسع عشر).

وخصص المؤلف فصلاً للتعليم في المجتمعات البدائية primitive من ١٧ صفحة، وفصلاً آخر عن التعليم في الصين القديمة من ٣٤ صفحة، لكنه اكتفى بالحديث عن التعليم الإسلامي في ثلاث إشارات عابرة تختص بأثر هذا التعليم على تطور التعليم في أوروبا في العصور الوسطى. وجاءت هذه الإشارات على الطريقة الاستشراقية المألوفة، التي تتحدث عن المسلمين باسم "الساراسيين Saracens"، أو "المحمديين Mohammedans"، أو "العرب Arabs".

---

[3] Monroe, Paul. *A Text-Book in the History of Education*, New York: The Macmillan Company, 1906.P. 160, 332

[4] *Monroe, Paul (Died 1947). A Text-Book in the History of Education, Paperback, Sydney, Australia: Wentworth Press.– August 26, 2016.*

[٥] وردت الإشارة إلى هذا المرجع في عدد كبير من الأعمال نذكر منها ما يأتي:

- عبد الدايم، عبد الكريم. **التربية عبر التاريخ منذ أقدم العصور حتى بداية القرن العشرين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٣م. ويشير المؤلف إلى أن الطبعة الأولى من الكتاب صدرت عام ١٩٦٠م.
- سمعان، وهيب إبراهيم. **الثقافة والتربية في العصور القديمة**، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦١م، في مراجع الفصول الأول والثاني والثالث والخامس والسادس.
- عبد العزيز، صالح. **تطور النظرية التربوية**، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، في مراجع جميع الفصول.
- الشيباني، عمر محمد التومي. **تطور النظريات والأفكار التربوية**، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧١م.
- عطية، عماد محمد. **تطور الفكر التربوي عبر القرون**، الرياض: دار الرشد ناشرون، ٢٠٠٤م.

وجاءت الإشارة الأولى في جملة واحدة في سياق بيان أثر الترجمة العربية لأعمال أرسطو في الحفاظ عليها في بغداد وسائر أنحاء الامبراطورية ومنها إلى أسبانيا، وهو ما عمل على إحياء وتطوير الاهتمام الأوروبي بالمعرفة عن أرسطو "المعلم".[٦]

وجاءت الإشارة الثانية إلى المسلمين في ثلاث عبارات تفسر الأولى ظهور الجامعات الأولى في إيطاليا، وتحديداً في صورة مدرسة للطب في دير ساليرنو "من خلال الاتصال بالمسلمين"، وجاء في العبارة الثانية تؤكد أنَّ: "جهود الرهبان وتعاليمهم في هذه المدرسة حفزتها الحرب الصليبية الأولى وانتشرت شهرتها في الخارج مع الفرسان العائدين." وأشارت العبارة الثالثة إلى أثر الحروب الصليبية في تعريف الأوروبيين بالروح العلمية وبالفلسفة اليونانية، "فحين بدأت الحروب الصليبية، اكتشفت أوروبا "برابرة الشرق" وبالعقل نعتبر أنَّ أهل الغرب كانوا هم "البرابرة"، حينها بدأ الغرب يتأثر بخصائص الشرق لا سيما، التوجه نحو البحث، وروح الشك، وحرية الرأي. وهذا الاتصال بالشرق وبالتعليم الإسلامي قدَّم لأوروبا ليس فقط المعرفة بالثقافة العربية والعلم العربي (الذي كان يعد من الفن الأسود أو السحر والشعوذة، ثم جرى تبنيه على أنه علم)، وإنما قدم هذا الاتصال لأوروبا القرن الثالث عشر معرفة أكمل عن أرسطو والفلسفة الإغريقية."[٧]

أمَّا الإشارة الثالثة لذكر أثر المسلمين، فقد تواصل عبر أربع صفحات تحت عنوان فرعي: "أثر تعليم المسلمين Influence of Saracen learning" حيث يقر المؤلف أن تاريخ التعليم في المجتمع المحمدي Mohammedan society، يطول شرحه لكن ما كان يهمُّه هو ملاحظة أثر هذا التعليم الإسلامي في تطور التعليم في الغرب خلال القرون الوسطى اللاحقة. فقد تَمَثَّل هذا الأثر –في رأي ذلك المؤلف- بجهود الرهبان المسيحيين النسطوريين في غرب آسيا، فهم الذين اهتموا بالفلسفة الإغريقية بعد الأهمال الشديد الذي لقيته في أوروبا، وعندما أصبح هؤلاء الرهبان موظفين في دواوين المسلمين قاموا بترجمة هذه الفلسفة من السريانية واليونانية إلى العربية، لا سيما ما يختص بالرياضيات والعلوم الطبيعية والطب، وتزايد هذا الاهتمام الفلسفي على يد ابن سينا.

---

[6] Monroe, Paul. *A Text-Book in the History of Education*, op. cit., P. 160.

[7] Ibid. PP. 314-315.

يقول المؤلف: "وفي الوقت الذي كانت المدارس المسيحية في شرق أوروبا وغربها تعاني من الاضمحلال، كانت المدارس في بغداد والبصرة والكوفة ومدن المسلمين الأخرى تزدهر بنشاط رائع وشهرة كبيرة. وكانت نوعية التطور الفلسفي الذي تأسس على أعمال أرسطو شبيهة بحركة الاهتمام الذي عهدته الكنيسة المسيحية، هادفة إلى أن تحل التوجهات العقلانية والصوفية الشبيهة بالعنوصية محل المعتقدات المحمدية الخارقة للطبيعة، ثم لتطوير لاهوت وفلسفة بالاعتماد على التطورات اللاحقة لتعاليم أفلاطون وأرسطو."[8]

وقد لاقت هذه الفلسفة اعتراضات من النظرة المحمدية الأورثوذكسية "المحافظة" التي عرفتها الأورثوذكسية المسيحية، فاضطرت هذه الفلسفة إلى الهجرة إلى الشمال الأفريقي والأندلس. "ولا يمكن القول بأن هذه الفلسفة والتعليم بصورة عامة أثرت في جماهير المجتمع أو أن هناك أي عبقرية إبداعية كبيرة متأصلة في العقل العربي، لكن العرب كانوا سريعين في استيعابهم وتعلمهم وإظهارهم مهارة في شرح وتكييف الفلسفة الأرسطية ضمن لاهوتهم ومعرفتهم العلمية."[9] وفي أسبانيا ولا سيما قرطبة أخذ هذا التعليم الأرسطي فيما بعد القرن العاشر يجد تطبيقات عملية ذكية. ففي جميع الممالك الإسلامية في الغرب أنشأوا المكتبات والمدارس العليا الشبيهة بجامعات اليوم، وأنشئت مدارس لتعليم الأطفال امتداداً للمساجد في مدن كثيرة. وبينما كان أوروبا المسيحية تفرض اعتقادات دينية حول فكرة الأرض المسطحة، كان مسلمو الأندلس "moors" يعلمون الجغرافيا من نماذج الكرة الأرضية. وعندما انتصر المسيحيون في النهاية على المحمديين حولوا المراصد الفلكية إلى جرسيات كنائس. من هؤلاء العرب أخذ الأوروبيون في القرن العاشر والحادي عشر الأرقام الهندية بدلاً من الأرقام الرومانية المرهقة. ومن المصدر نفسه جاءت المعرفة بالجبر والعمليات الحسابية المتقدمة. وفي الطب والجراحة والصيدلة والفلك والتشريح أضافوا الكثير مما يعد الآن معارف أولية بسيطة. وشرحوا انكسار الضوء، والجاذبية والخاصية الشعرية، ومن الشفق تمكنوا من تحديد ارتفاع الغلاف الجوي، ووزن الهواء، وجاذبية الأجسام. ووضعوا جداول فلكية، وتصحيحات المنظور واخترعوا ساعة

---

[8] Ibid., P. 331

[9] Ibid., P. 332.

البندول. وقد كانت ثقافتهم في التجارة والاكتشافات الجغرافية والملاحة والتحسين في جميع فنون الحياة أرقى بكثير مما كان عليه الأوروبيون. فقد أدخلوا استعمال الرز، والسكر والقطن وإنتاج الحرير، وعلموا الأوروبيين استعمال البوصلة ومسحوق البارود والمدفع. وهكذا وفي مجالات متعددة خدمت الثقافة العربية العمل التعليمي للرقي بالحضارة في الغرب إلى مستوى أعلى.[١٠]

واستأنف المؤلف حديثه عن المؤثرات الإسلامية على التعليم الأوروبي بالإشارة إلى الفكر الرُّشْدِيّ[١١] الذي عرف في البداية على أنه فكر عقلاني، وهو لم يكن أكثر من تعليقات على فكر أرسطو، لكنه أصبح فكراً أوثوذكسياً محافظاً، وانتقل بهذه الصفة إلى الجامعات الأوروبية في القرن الرابع عشر، حيث منعت الجامعات تعليم أي شيء يناقض الأرسطية - الرشدية. "وبهذه الصورة، وكما هو الحال في مجال الطب والتنجيم مارس التعليم العربي أثره خلال القرون الوسطى، بعد أن عرف المجتمع المحمدي لفترة طويلة شرارة الحيوية الفكرية."[١٢]

همنا في هذا المقام أن نشير إلى أهمية النظر الموضوعي للمؤلفات الكثيرة التي تولت البحث في تطور التاريخ التربوي والتعليمي من حقبة زمنية إلى أخرى، ومن حضارة إلى أخرى، والنظر الموضوعي لا يغني عن إعمال التحليل النقدي، للكشف عن التصورات الفكرية والنظريات التي حكمت كتابات المؤلفين والباحثين في تطور الفكر التربوي والممارسات التربوية، سواءً كانت هذه التصورات الفكرية تستند إلى مرجعية دينية أو غير دينية. فثمة نظريات حكمت طريقة الباحثين في التحقيب الزمني، ونظريات كرست فكرة التطور العضوي، ونظريات فسرت عملية التفكير البشري عبر مراحل أوجست كونت الثلاث في التفكير البشري، وهي أمثلة على أطر فكرية أثرت ولا تزال تؤثر إلى حد كبير

---

[10] Ibid., PP. 332-333

[11] Averroism

[12] Ibid., PP. 333-334

في تصور الباحثين والمؤلفين، وصفاً وتفسيراً، لما كانت عليه حالة التربية والتعليم في المجتمعات البشرية.

فميدان الفكر التربوي الإسلامي بحاجة ماسة إلى بناء رؤية تنطلق من هداية الوحي الإلهي، وتأخذ بالحسبان كلاً من الفطرة البشرية، وحقائق الواقع، وطبائع الأشياء.

والله سبحانه الموفق لكل خير.